

التأثير العربي في اللغة الاسبانية

عصمت ناز*

Abstract

Spain the Muslim empire in Europe which ruled for eight centuries and gave light particularly to Europe and to entire the world as well. Language of Muslim rulers was Arabic so the effect of this beautiful rich and sweet language was very strong. In this article I explain with examples from daily life, poetry, prose, customs and culture of Spanish people that how they still use Arabic words very frequently. It is just a feeble effort to describe how the Muslim left very strong footsteps on every aspect of life. As language is first interaction among human beings and they understand each other's by using their language but it is also very interesting that every language left its impacts on the language of the neighboring countries. Muslims rulers during their rule introduced this language not by force but in friendly way. This study justified the significant position of Muslim Spain and mentioned their remarkable impacts in this regard. Spain was the Glory of Muslims, seat of learning and place knowledge in all fields of life from conquest till downfall. All this essence of knowledge was due to the personal interests of kings and a large number scholars and their real research around the country. At that time this country was indeed the only developed country in the whole medieval Europe.

Keywords: Muslims, Arabic, Spain, Poetry, Culture, Language

وما يسر العربي في اسبانية غاية السرور، أنه كثيرا ما يجد من بين المثقفين الاسبان من يعتز بنسبة العربي أو من يحمل لقباً عائلياً عربياً صريحاً مثل بنى أمية أو ممتز- جا بكلمة أسبانية يكون معها لقباً يشير بوضوح إلى امتزاج العنصر العربي في العائلة الاسبانية، مثل بنى كوميث، وتشيع بين الاسبان اليوم الاسماء العربية صريحة مثال فاطمة، ونورية، وبكروحسن أو مترجمة عن العربية ترجمة حرفية مثل عطية الله، وفي الحقيقة أن التأثيرات والشواهد التاريخية والحضارية العربية في اسبانيا ليست مقتصرة على بقايا آثارها أو أطلالها هنالك، وانما هي ظاهرة شائعة في أخلاق القوم وطبائعهم وعاداتهم، بلوحيتهم وسحناتهم وإنك تشعر بينهم إنك في بلاد عربية وأنهم يتصورونك مواطناً اسبانياً من الجنوب أو الشمال.

* رئيسة قسم التاريخ والمطالعة الباكستان، وعميدة كلية الحضارة والفنون، جامعة النساء مولتان.

وكان المستعربون ثنائيي اللغة وكانوا أحد العوامل التي ساعدت على الإتصال بين المسلمين والمسيحيين في المجالات الاجتماعية والثقافية وحينما افتقد هؤلاء المستعربون التسامح المعهود من قبل الحكام المسلمين بعد القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، بداؤا بالمغادرة من الجنوب إلى الشمال-

ولا أشير هنا إلى يهود الأندلس، فإن اليهود في المشرق والمغرب كانت العربية لغة ثانية لهم أو لغة أولى على الأصح يؤلفون بها وينشرون وينظمون ولا أذكر أيضا قسطنطين الأفريقي (ت ٥٤٨١ / ١٠٨٧م) رأس النقلة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية، لأن مولده في قرطاجة قرب تونس العاصمة يدل على أن أصله عربي أو كالعربي، وإن كان قد توفي راهباً في دير جبل كاسيفو جنوبي شرق في رومية، ولما استولى الفونسو السادس على طليطلة (الأندلس) سنة ٥٤٧٨ / ١٠٨٥م جعل منها مركزاً لنشر الثقافة العربية في اسبانيا نفسها وفي أوروبا، ثم أن "رايموندو" (١١٢٦م/ ١١٥٢م) أسقف طليطلة أدخل النصوص العربية في دوائر الدراسة الغربية.¹

هناك بعض المظاهر من هذه التأثيرات العربية في اسبانيا يظهر إلى أي مدى أثر العرب الأندلسيين في الثقافة الاسبانية وفي اسباني عموماً، ومظهر التأثير العربي في الحياة اليومية الاسبانية يتجلى بوضوح في اللغة الاسبانية الحديثة، فعلى الرغم من المحاولات التي قامت بصورة رسمية ومدرسة في أواخر القرون الوسطى وأوائل العصور الحديثة لدراسة المفردات الاسبانية واستخراج الكلمات العربية التي كانت شائعة فيها، والاستعاضة عنها بما يمكن أن يؤدي مفهومها ولو بصورة تقريبية من المفردات اللاتينية، وعلى الرغم من القوانين التي منعت استعمال الألفاظ العربية في الاسبانيا وأقول على الرغم من ذلك كله، لا يزال في اللغة الاسبانية اليوم أكثر من سبعة عشر بالمائة من مفرداتها عربي الأصل- والمدن، والقرى الأندلسية لا تزال محتفظة بأسمائها العربية حتى اليوم، من ذلك مثلاً مدينة "بلد الوليد" وقد أصبح اسمها في الاسبانية "Vollodlid" وهو اسم يطلق على مقاطعة كبيرة من مقاطعات اسبانيا، وعلى مركز من المقاطعة، ومثل بنى ابراهيم وبنى سليم وبنى خيرون وبنى عمرو وبنى دوم، وقلعة ايوب إلى عشرات بل مئات من القرى والأماكن الأخرى التي لا تزال تحتفظ بأسمائها العربية على ألسن الاسبان واسم مدريد نفسها حرف عن الاسم الذي أطلق عليها العرب أول دخولهم إلى

¹ بالنشيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمه حسين مونس، (القاهرة: ١٩٩٥م)، ٥٣٦

اسبانيا، فقد وجدوا في منطقتها مجرى ماء فأطلقوا على القرية التي عليه كلمة مجرى وتحولت هذه الكلمة بمرور الزمن إلى مجريط ثم إلى مدريد.

وبلغ الاهتمام بنقل علوم العرب وآدابهم إلى اسبانيا النصرانية ذروته في عصر الفونسو العالم (الفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة (١٢٥٢-١٢٨٤م) وقد أسرف بنفسه على توجيه أعمال الترجمة والتحرير أو التلخيص التي كان مساعده يقومون بها، وأنشاء في قرسية معهدا للدراسات بمعاونة الرقوتي المسلم الفيلسوف المعروف باسم "أبو بكر محمد بن أحمد الرقوتي"² من أهل رقوطة. ثم نقل هذا المعهد إلى مشبيلية وأنشأ في إشبيلية مدرسة عامة للاتينية والعربية، أما النصارى قد تعربوا لسانا وحضارة وثقافة وحياة اجتماعية، حتى كان من أساقفهم من اسمه عبد الملك أو اسمه ربيع بن زيد، فأمر مشهور، وبعض المستعربين هاجروا من بلنسية إلى قشتالة وعاد نحو عشرة آلاف منهم غرناطة مع القوة المسيحية بقيادة الفونسو الأول ملك أراغون في سنة ١٢٥٢م، وفي سنة ٥٥٤١/ ١١٤٦م نفوا من إشبيلية إلى الأراضي القشتالية³.

وهكذا انتقلت الحضارة إلى بلدان أخرى ويقظتها من سباتها سواء في ذلك الحضارة الفكرية أو الحضارة العمرانية، وتم نقل هذه الحضارة عن طريق الطلاب الأوروبيين الذين التحقوا بالجامعات الإسلامية في قرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة، ثم عادوا إلى بلادهم يحملون أفانين من العلم والمعرفة والحكمة، أو عن طريق المدجنين وهم المسلمون الذين كانوا يعيشون في كتف الممالك المسيحية قبل سقوط غرناطة، أو كما هو معروف عن طريق المستعربين الذين يعيشون في كتف الحكم الإسلامي، وظلوا هم وأولادهم مصابيح هدى لأوروبا بعد انتهاء ملك للمسلمين، وكذلك عن طريق المورسكين وهم المسلمون الذين أرغموا على ترك الإسلام أو على الأقل التظاهر بذلك بعد سقوط غرناطة⁴.

"ليس من السهل معرفة أسس الحضارة الإسلامية وذلك لأنها كأبي حضارة لم تظهر من العدم انما سبقتها حضارات هي مصادر لها، فالحضارة القائمة تكون دائما خلاصة أو انتقاء لماضي الحضارات السابقة، وإن أضافت إليها عناصر جديدة حتى تتميز بشخصية خاصة، فالحضارة أخذ وعطاء ونتيجة مشتركة لعناصر قديمة وأخرى

² بالنشيا، تاريخ الأندلسي، ٥٣٦

³ انظر، عمر فروخ، الثقافة الإسلامية، (المصر: ١٩٨٢)، ١٠٨.

Edven Hole, Spain under The Muslims, (London: 1958), p.49

⁴ أحمد شلبي، موسوعة الحضارة، (القاهرة: ١٩٨٨م)، ١٠٥: ١٠٦-٤.

جديدة، وأن القلم والجديد يرحل بجانب بعض كما يحجب بعضه البعض وأحيانا
 يغير بعضه على بعض ومع ذلك يمكننا أن نقول ببساطة إن أسس الحضارة
 الإسلامية ترجع أولا إلى العرب وثانيا إلى سكان البلدان التي فتحها العرب⁵،
 هذا يعني أن تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية كان عظيما وجليلا- فالعرب هم الذين
 أبدعوا في جميع العلوم والفنون ابداعا مختلفا كثيرا عن الحضارات التي عرفت البشرية عند الأمم الغابرة
 وهم الذين فتحوا لأوروبا أبواب المعرفة العلمية والأدبية والفلسفية وظلوا اساتذة لها مدة ستة قرون
 وكانت حضارتهم خير نواة للحضارة الغربية الحديثة⁶ - ولم يكن المستعربون موالين بصورة دائمة للحكام
 المسلمين وكانوا غالبا ما يتآمرون ويتعاونون مع ملوك الاسبان في غزواتهم على اراضي المسلمين، ونتيجة
 لتعاونهم استطاع الفونسو السادس ملك ليون أن يدم جيشه البالغ نحو اربعمائة ألف مقاتل لمدة تسعة
 اشهر في المنطقة الإسلامية في اثناء قتاله مع المرابطين، وعند ما انسحبت هذه القوات لحقت بالملك
 المسيحي الوف من النصرارى خوفا من انتقام المسلمين، وقد نقل الكثير من الباقيين من قبل على ابن
 يوسف بن تاشفين واسكنوا في مديني سافي ومكناس⁷ -
 وقد رافق نحو اربعين ألف يهودى جيش الفونسو الحادي عشر ملك ليون ١٣١٢ -
 ١٣٥٠م، وعلى الرغم من انهم تلقوا اللوم والمعاملة السيئة في الأراجي المسيحية بسبب استغلالهم
 وسلبهم للفقراء، فقد تمتعوا بحماية الملوك والزعماء لحاجتهم إلى أموالهم واعتمادهم على خدماتهم، وقد
 أخذ العديد من النبلاء المسيحيين الزواجات اليهوديات لجمالهن وثروتهن، وفي القرن الرابع عشر الح
 الفانسو على البابا كليمنت السادس "Clament 6" أن يسمح لليهود بأستعمال كنائسهم بحجة
 أنهم قاتلوا المسلمين إلى جانب المسيحيين، وأن سكانهم في المدن كان ضرورة أساسية لإستقرار
 الاقتصادى، وكان عديد من المدجنين قد غادروا إلى الجنوب، وقد عوضت هذه الخسارة بوصول
 اليهود، الذين عينوا موظفين لجمع الضرائب وملتزمين للمزارع التي تقع خارج نطاق أراضي المسيحيين في
 طليطلة ومرسية ولا مانشا، وقد عد اليهود مع ذلك خدما للكنسية التي غالبا ما كانت تسلبهم
 ثرواتهم⁸ -

⁵ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٣م)، ١٠٥.

⁶ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ١٠٥.

⁷ ايدون هول، اسبانيا، انجلترا، ١٩٨٥م، ٥٠.

⁸ عبد الواحد زنون طه، دراسات الأندلسية، مجموعة ١، بيروت، ١٩٨٣، ٣٣٧.

مع ذلك فليس هناك ما يدعو للقول في وضوح بأن العرب وجدوا منذ وجودهم الأول باسبانيا معرضة قوية من أهلها عاشوا معهم، أو من أهلها الذين خرجوا عليهم، لأن الخارجين عليهم في الشمال كانوا جماعات قليلة كما قلنا ثم زادوا مع الأيام عددا قوة وكان يهتمهم في مراحل حياتهم الأولى أن ينسى المسلمون وجودهم بإمكانهم البعيدة، وأن يختفوا تماما عن الرقابة الإسلامية حتى الزمن الذي يستطيعون فيه مقابلة العنف واستمروا كذلك وقتا طويلا⁹ وكان العرب يبدأونهم بالحرب كلما أحسوا بوجودهم ولكنهم كانوا أحيانا يتحاشون الحرب معهم لقوتهم وتفوقهم ويحاولون دائما أن يظهروا أمامهم أنهم يريدون الحياة في سلام آمن وعندما يضطرون للحرب كانوا يدافعون عن أنفسهم بقوة وشجاعة- رغم ذلك لا نقول بأن تاريخ المسلمين بالأندلس كان سلسلة طويلة لحركة صراع مؤسفة لم تنته بينهم وبين أعدائهم إلا بجمعتهم في النهاية لأن أوقاتا طويلة من هذا التأريخ كانت تبدو وكأن الفراغ في اسبانيا كان مشغولا دائما بالمسلمين وحدهم وبدولة المسلمين وحدها-

لقد أثر كل من المستعربين واليهود والمدجنين على الفن والمدنية والمسيحية وغرسوا الروح الإسبانية الإسلامية في الحياة المسيحية وهناك أيضا المهريون والجواسيس الذين كانوا ثنائيي اللغة ويعيشون في هذه المدن التي كانت تسمى Pueblo de Naciados وهي مازال مدينة مزدهرة في منطقة الاسترامادورا "Extrma Dura" وكان المعلمون والتجار المسلمون واليهود من كبار حملة الحضارة في اسبانيا المسلمة وقد اكتسب تلامذتهم وزبائنهم طرقهم وعاداتهم، ونظرا لتوفر أفضل أنواع المعالجة الطبية في قرطبة قصدها المرضى المسيحيون من الشمال لغرض المعالجة، ولقد شفي شانشو بفضل الطبيب اليهودي الخاص بالخليفة، كانت الزيارات غالبا ما تتبادل بين المسلمين والمسيحيين في أثناء الحروب وكذلك سادا لتعاون المتبادل بين الطرفين ويبدو أن المقاتلين في كلا الجانبين كانوا خليطا من المسلمين والمسيحيين-¹⁰

ويقال:

ازدهرت حضارة المسلمين في اسبانيا وصقلية ازدهار عظيم ومنهما انتقل تأثير الحضارة الإسلامية إلى فرنسا وإيطاليا، فقد نفذت فلسفة قرطبة وحكمته معلما الكبير ابن رشد إلى جامعة باريس وتحملت بالرموبيوت غربية الطراز، وارتفع

⁹ محمود علي مكي، التأثيرات المشرقية في الأندلس ومدى أثرها في تكوين الثقافة الأندلسية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مدريد ١٩٦١م-١٩٦٢م، ٩-١٠: ٢٩٤

¹⁰ Baker, Cambridge Medieval History, London, 1922, p.3/437

الثاني، بل أن أهمية الثقافة التي تعلقها إلى العرب العناصر الإسلامية في صقلية وإسبانيا كانت تعادل على أقل تقدير أهمية تأثير الشرق على الغرب في زمن الحرب الصليبية.¹¹

تأثير العربي في العادات والتقاليد:

وتبدو المؤثرات العربية في كثير من الجوانب الحياة الاجتماعية الإسبانية، من ذلك أنهم عندما يذكرون اسم المتوفي في حفل جنازى يقولون رحمة الله والتحية تكون تقبيل الكتف، وهي العبارة الأندلسية، ولا تزال التحية بين المسلمين بتقبيل الكتف¹²، وكان الإسبان في القرن الثاني عشر الميلادي يقيمون إذا طار الغراب عن يمين الطريق إلى يساره، هذا كان يعني عندهم فألاحسنا، وهذا الاعتقاد بلا شك نسخة طبق الأصل من الاعتقاد العربي المتمثل بتيمن العرب بالسائح وتشاؤمهم بالبارح. وتعرض العادة على الإسباني عندما يأكل أمام الآخرين أن يعرض عليهم أن يشاركوه في الأكل، وهذه عادة أصلية تدل على كرم النفس وسمو الذوق الاجتماعي، وهي بالضبط العادة المعروفة بخاصة في العراق وبين الأوساط الشعبية عليا لأخص، فإن المرء لا يأكل أمام الآخرين إلا بعد أن يقول لهم عارضا عليهم الأكل معه "تفضلوا" فيجيبونه في العادة "عافيات أو بالعافية".¹³

وحتى بعض الخواص العنصرية الأندلسية موجودة في الأندلس مثل ملامح وجوه سمراء والشعور والعيون السوداء وقدودهم المتوسطة وكثيرا من الإسبان بالرغم من نصرانيتهم تجرى في عروقهم دما أسلافهم مسلمي الأندلس، لأنهم كانوا قبل سقوط الأندلس النهائي قد اندمجوا في المجتمعات الإسبانية التي يعيرون فيها وكان الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان معروف ولا سيما في عصور الإنحلال الأخيرة.¹⁴

والجانب هذه الخواص العنصرية والمادية توجد ثمة طائفة من الخواص الأدبية التي تبدو في كثير من الصفات الأخلاقية والتقاليد والعادات، فقد ورث الإسبان كثيرا من صفات أسلافهم وتقاليدهم، فهم أهل بشاشة وتواضع وطيبة وهم يميلون إلى الدعة ويعشقون ألوان المرح، ويكثرون من الغناء والرقص وينسبون كثيرا من ألوان مرحهم وأغانيهم إلى أصول الأندلسية.

11 Baker, Cambridge Medieval History, p.3/290

12 عبد الحليم العويس، سقوط ثلاثين دولة الإسلامية، ط ٣، ج ١٩٨٣، م ٢٥٦

13 عبد الحليم عويس، م-ن، ٢٥٦

14 عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، (القاهرة: ١٩٦٩م)، ٣٥٦

وهم يبالغون في التحية والخفاوة وبيتندرونك يقولهم أولا "Ola"، (أهلا) على طريقة الشرقية، ويتبادل الأقرباء منهم والأخصاء القبلات حتى في الطرقات، وفيهم أحيانا نزق وسرعة انفعال وغضب، ولكن نزول لأقل ترفية، ولهم بعض العادات ذات مسيحية شرقية وإسلامية أحيانا، فهم مثلا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعد تناوله وفي كثير من الفنادق الفخمة ترى المغسل قائما في قاعة الطعام وهي عادة شرقية إسلامية مخصصة-

كانت الحضارة الإسلامية في الأندلس ساطعة جدا ومراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجا يسكنها أمراء اقطاعيون يفتخرون بأنهم لا يقرأون وأن كثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يقضون أوقاتهم في ديارهم يكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفسية فيكون عندهم من الرقوق ما هو الضروري نسخ كتب العبادة، وكما أثر الأندلس من الحضارة الإسلامية لم نجد مثالا أوضح من ذلك التأثير أمة في أمة أخرى، مازال نشاهد الدم الشرقي العربي فيها بسهولة، أجل يمكن أن نباد الأمة وأن تحرق كتبها وأن تخدم آثارها، ولكن ما لها من التأثير يكون أقوى من القلز في الغالب، فلا يستطيع الانسان محوه ولا تكاد العصور تقدر عليه.¹⁵

ويظهر أثر التراث الإسلامي في الحضارة الأوروبية وينتهي الرأي القلم الذي ذهب أصحابه إلى القول بأن الغرب أسبق من الشرق في تطور الفكر البشري ورفى الحضارة الانسانية.¹⁶، وليس فيها شك ومبالغة يقول لين بول:

"إننا لنلمس فضل العرب، وعظيم آثار مجدهم حينما نرى اسبانيا الأراضي المهجورة القاحلة التي كانت في ايام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار تزدهر فيها الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية وحينما نذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء وحينما نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار".¹⁷

¹⁵ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ١٩٠٠

¹⁶ حسن ابراهيم حسن، النظم الإسلامية، مصر، ١٩٩٥م، ٤: ٥٩٢

¹⁷ عبد العزيز مسند، الأندلس تاريخ وعبرة، القاهرة د-ت، ١٥٣

ونجد كثيرا من الحقائق التي هي في الدوحة القصوى من البال مجهولة عندهم مع انها متعلقة بأخبار النصارى مع مقارنة الاسبانية، ويقول رانهارت دوزي:

”إن الاسبان كتبوا تاريخ وطنهم الذي منه عدة مقاطعات تولاهها العرب مدة ثمانية قرون وذلك يدون أن يعرفوا لغة العرب، ولما لم يكونوا قادرين على مراجعة الكتب العربية، كان لا مناص لهم من الخط عند كل خطوة كلما أرادوا الكلام عن الدول العربية أو عن الحرب والسلام بين المسيحيين“¹⁸

وقيل، بين القرطبة اليوم حيث الحانات بدل المكتبات والمجانين بدل العلماء والفلاسفة والسكارى بدل أهل المرأة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلاب المشكلات بدل طلاب المعرفة. والمفردات العربية والتقاليد توجد بكثرة وبوفرة وسخاء في اللغتين الاسبانية والبرتغالية، حتى قيل إن ربع الاسبانية مأخوذ من العربية والبرتغالية تضم ثلاثة آلاف كلمة عربية، والأمريسي فيه غلوا، فقد ثبت ذلك بما لا يدع مجالا للشك، وآية ذلك القاموس الذي ألفه المستشرقان أنجلمان ودوزي، ويقال ”معجم المفردات الاسبانية البرتغالية المشتقة من العربية“¹⁹

وأسجل هنا ظاهرة أخرى في الاسبانية مشابهة تماما لظاهرة في اللهجة العراقية تلك هي استعمال الكلمات لا معنى لها ولكن وقعها وقافيتها منسجمان مع كلمة أخرى قبلها ونستعمل هذه الكلمات لتكثير المعنى وإطالة الحديث، مثال فلان وعلان، أو فلان وفلان، كذلك يقال في الاسبانية، Fulano y Mengano و²⁰ Fulano, Zutanay Mengano، وقالوا إن الشعر الاسباني يتأثر بالعربية وأما نشأ أول أمره تقليد الشعراء العرب، وأن اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي أن يدفع الأول إلى تقليد الآخرين. وأكدوا أن قواعد التقنية في الشعر الشعبي باسنانيا وأساليب صياغة الشعر الحديث ونظمه إنما مأخوذة من العرب وأن الموسيقى التروبادور و آراء الفونسو العالم في هذا الفن العربية كلها.

¹⁸ رانهارت دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا، ترجمه حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٩م، ٢٣٤

¹⁹ مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، بيروت، ١٩٨١م، ٢٩

²⁰ بالنشيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ٥٢٤

وكذلك القصص المعروفة بالفابليو "Fablianx" الخرافات والحكايات ترجع في مناقشتها إلى أصول العربية وكانت مدرسة المترجمين الطليين من أهم العوامل التي ساعدت على تعريف الاسبان خاصة والاروبيين عامة بالثقافة العربية، إذ أن العلاقات بين المسلمين والنصارى في الأندلس لم تكن مقتصرة على الحرب بل كانت بينهما صلات سليمة أيضا، وعن طريق هذه الصلات عرف الاسبان الشماليون ما كان للعرب في الجنوب من نظم سياسية وإدارية ودينية وتجارية وتهيأوا إلى أهميتها ومالوا إلى النسيج على منوالها.²¹

وعندما تمكن الاسبان خلال حريمهم الطويلة مع العرب من احتلال طليطلة عام ٥٤٧٨/ ١٠٨٥م وتقرر بذلك مصير الجزيرة، أخذ ملوك قشتالة يعملون على نقل كنوز الثقافة الإسلامية إلى لغاتهم ليتمكنوا من رفع مستوى الثقافة بين شعبهم، ولهذا أسست في طليطلة "مدرسة المترجمين" المشهورة التي اشتغلت بنقل الثقافة العربية الإسلامية بما فيها من العلوم الاغريقية وما أضافه إليها العرب من مشروع وتعليقات إلى المدارس الأوروبية.²²

وقد بين أن رايكو ندو لوليو الصوفي الاسباني الذي كان الناس ينسبون إليه ابتداء مذهب الاشراق، انما كان اعتماده على الكتب المسلمين عامة، وعلى ابن عربي خاصة بشكل ثابت، أنه يتبع فيه للتصوف الإسلامي وليس مبتدعا للمذهب الاشراقي، كما كان يعتقد قد كان الصوفي النصراني متمكنا من العربية، واسع الاطلاع على ما كتبه أهلها وكان يستعمل العربية في مجادلاته مع المسلمين والتبشير في المغرب، وكان يكتب بالعربية كما يكتب باللغة القطلينية، وقد كتب مؤلفه المسمى "كتاب الكافر والعلماء الثلاثة" بالعربية أولا ثم ترجمه بنفسه إلى القطلونية، وعنهما نقل إلى العبرية واللاتينية والفرنسية والاسبانية، ولم يتحرج هو نفسه من أن يعترف بأنه يستعير في كتاباته الصوفية من المتصوفية المسلمين وحتى أنه يستعمل نفس المصطلحات التي يستعملها المتصوفة المسلمون.²³

وفي الأدب الأسباني تظهر التأثيرات العربية قوية بأحلى مظاهرها في الشكل والمضمون جميعا، فقد كان أول ماعرفت أوروبا من القصص المستقى من أصول عربية هو كتاب "تعليم رجال الدين" المؤلف من أهل وشقة يهودى الأصل كان اسمه "موسى سعروي"، وتشير الدلائل إلى أنه كتب كتابه هذا باللغة العربية أولا ثم ترجمه بنفسه إلى اللاتينية، وهو يورد في كتابه هذا ثلاثا وثلاثين

²¹ بالنشيا، م-ن، ٥٣٥

²² بالنشيا، م-ن، ٥٣٥

²³ بالنشيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ٥٥٠

أقصوبة شرقية، نقلها عن "حنين بن إسحق" وكليلة ودمنة والسند باد، وهو يقرر فيه صراحة أنه صنعه من أمثال فلاسفة العرب وحكمهم قد تأثر بهذا الكتاب أدباء أسبان كثيرون مثل "دون خوان مانيول" في كتابه (الكوندى لو كانور) وقصة العجوز والغيور، حتى قيل:

إن من الذي عرف الأدب الاسباني حول الأعياد وصرح الثيران وحروب المسلمين والنصارى والتفاخر ورقص الفرسان والتشبيب والغزل، كل ذلك أثر عربي مما اشتهر به عرب الأندلس في أوروبا.²⁴

ونتيجة هذا الأثر العميق فإن الكاتب الشهير سرفانتيس "Cervantes" قد تأثر في قصته الشهيرة دون كيخوتوهي من خير ما انتجته العقلية الأوروبية في عالم الأدب بالثقافة العربية في الأندلس²⁵ لقد كان أمر طبيعياً إذن أن تتأثر الأدب الأوروبي بالأدب العربي، لأن اللغة العربية قد فرضت نفسها على الأسبان جميعاً، وأصبحت لغة الطبقة المثقفة، وأصبحت دأبها غذاؤهم الفكري والروحي حتى أن كاتباً اسبانياً متعصباً الفاروا يقول مع الأسف أن الجيل الجديد لا يعرف غير اللغة العربية والأدب العربي.²⁶

وبين مما عرضنا أنه لا يستبعد أن تكون هناك علاقة تأثير بين ذلك الأثر الأدبي وهذا الطراز من القصص الاسباني، وعلى أي فهذا موضوع جدير بالدراسة، وتأثير الزجيات والموشح الأندلسي في الشعر الاسباني والفرنسي بخاصة، وفي الشعر الأوروبي بعامة أمر معترف به بين المستشرقين الأسبان أنفسهم ويجلى التأثير العربي واضحاً في كثير من أجيال الأدب الاسباني الوسيط التي نظمها أدباء اسبان لهم مكانتهم الكبيرة في أدب أمتهم، وقد كان تركيب هذه الأجيال الأندلسية، مثال ذلك "كانتيكات" أغاني الفونسو العاشر، وقد وصل روبر "Robra" إلى نفس هذه النتيجة عندما درس تركيب الموسيقى هذه الأغاني، فأظهر أنها هي الأخت التي قامت على أساس من الموسيقى الأندلسية الإسلامية.

وأثبت كذلك انتقال بحور الشعر الأندلسي التي كانت تغني بها، فكان من الطبيعي أن يكون لها الآثار في الطرز الشعرية التي وجدت هناك ويظهر الأثر العربي واضحاً قوياً. كذلك عند خوان رويث المعروف (ب أرثبير ستي دى هتيا) أي نائب الأسقف بناحية هتيا (منتصف القرن الرابع عشر)

²⁴ غوستوف لوبون، حضارة العرب، ٤٤٩

²⁵ آرنولد وجيوم، تراث الاسلام، مجموعة مقالات ترجمها خطاب عطية، بيروت، ١٩٨٢، ١٤٨

²⁶ مصطفى شكة، معالم الحضارة الإسلامية، ٣١٧

وهو أول شاعر غنائي كبير في الأدب الإسباني وأكبر شخصية شعرية في عصره²⁷ يقول فيمواضيع مختلفة من كتابه المسمى "كتاب الحب الطيب" وفي رسمه الألفاظ العربية بحروف لاتينية بدقة، لا تدع محالا للشك في أنه كان يفهم العربية بصورة جيدة وقد أشار إلى ذلك أيضا كل من دوزي وبروكلمان وإلى غيره²⁸.

والشعراء الإسبان الذين استملوا من الرجل في أشعارهم كثيرون جدا، نكتفى بأن نذكر هنا أسماء بعضهم، مثلا ألفاريث دي فيليا ساندينو "Alvarez de Villa San Dino" والراهب ديكو البنسسي "Devalencia Frey Diego" ومنتورو "Montoro" وغيرهم كثير، ومن الدواوين التي تحتوي على قطع من هذا الطراز نذكر ديوان بانبا "Elconcioncrode Baena" وديوان الشعارين ألفاريث كاتو "Alvarez Gato" وخيمينيث دي أوربا "Jimenez de Urrea" وكثير غيرها²⁹.

وهناك الأجيال الأسبانية أخرى في أغاني المهود التي تهدي الأمهات بما أطفأ لهن وهناك أغنية إسبانية صغيرة اتند إليها ريبا في دراسة لأثر الموسيقى العربية في الإسبانية خلال العصور الوسطى، وهي انشودة العربيات الثلاث، نذكر منها هذه الأبيات:

عشقت ثلاث فتيات عربيات في جيان عائشة وفاطمة ومريم

ثلاث عربيات بالغات الجمال ذهن يجمعن الزيتون

فوجدونه قد جمع في جيان عائشة وفاطمة و مريم

ثلاث عربيات فياضات بالحيوية ذهن يجمعن التفاح

فوجدنه قد جمع في جيان عائشة و فاطمة و مريم³⁰

²⁷ آرنولد وجيوم، تراث الإسلام، ١٤٩

²⁸ حكمة على الأوسى، فصول في الأدب الأندلسي، القاهرة ١٩٨٧م، ٢٠٥

²⁹ خوليان ريبا، تاريخ إسبانيا، تعريب حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٨ و ١٩٨٨م، ١١٤

³⁰ خوليان ريبا، تاريخ إسبانيا، ١١٤

وموضوع هذه الأغنية وموسيقاها يرجعان إلى عصر هارون الرشيد ومع هذا فقد كان يتغنى بها في إسبانيا في القرن التاسع عشر، ونقلتها إلى برتغال في القرن التاسع عشر السيدة ميخايلين فاسكو نثمبلوس- وهناك لحن واحد على الأقل ثبت صورة محققة أنه كان ذا نغمة بين العرب الأندلسيين في العصور الوسطى، وقد تخلل في أعماق الموسيقى الأندلسية الشعبية- فقد نشرت الأدبية كارولينا كتيبا حول أغنية ذاعت بين الشعث في شبه الجزيرة الأيبيرية كلها، وقد أثبتت في هذا الكتيب ذيوع هذه الأغنية، والتغنى بها في المشاهد التمثيلية والاحتفالات التي كانت تقام في الأعياد الشعبية في زمن الشاعر خيل فثنتي و في قرون قبله وبعده- حتى أنها استعملها المسيحيون الأسبان كأغنية من أغاني المهود، وهذا اللحن يرجع في أصوله إلى ألحان العربية الشرقية، وقد انتقل إلى اسبانيا وشاع في بعض الأغاني الاسبانية التي كانت ولا تزال ذائعة ذيوعا كبيرا بين الشعب الاسباني حتى اليوم.³¹

وكان هناك تأثير عميق للموسيقى العربية بين المسيحيين الأسبان، وأنه من الطبيعي أن انتقل إلى أغاني الاسبانية مع الآلات الموسيقية العربية ومع الألحان، كلمات تلك الأغاني العربية التي تأثرت بها الموسيقى الاسبانية، وقد بقي هذا الطراز الشعري الأندلسي حيا بين الشعراء الاسبان حتى أواسط القرن السابع عشر على أقل تقدير، وبعد هرب الاسترداد التي احتل فيها الاسبان المدن العربية الاندلسية-

كان المسيحيون الاسبان يطربون حين يسمعون الموسيقى العربية ويتمتعون بها وبالأغاني العربية غاية التمتع وفي كتاب "التاريخ اللتيني" الذي ألفه المبرأ طور ألفونسو السابع (١١٢٦- ١١٥٨م) اشارة تقول إنه لما دخل الملك المذكور إلى طليطلة سنة ١١٣٧م، خرج لاستقباله رؤساء سراج ووجهاء اليهود والمسيحيين مع شعب طليطلة كله، وكان الجميع يتغنون كل بلغته ترجو من الله أن يرع الملك ويسدد أعماله ويوفقه منها- وفي التاريخ ألفونسو الحادي عشر عندما يتكلم على دخول الملك إلى اشبيلية يقول، كان الرجال والنساء العربيات يؤدون ألعابا عجيبة، وهذا يعني أن العرب كانوا يشاركون تحت الحكم الاسباني الاحتفالات العامة، بعضهم من رقص وغناء على أن الملوك الاسبان لم يكتفوا بالاستماع إلى الموسيقى العربية تعزف في الشوارع والساحات العامة بمناسبة الأعياد ولكنهم أدخلوها في قصورهم وبلاطاتهم وحذوا في ذلك حذو الملوك العرب، فعينوا المغنين العرب في قصورهم الملكية وأجرو عليهم الأعطيات ولذلك يقول خوليان ريبرا:

³¹ بالنشيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ٦٢٩؛ ريبرا، تاريخ اسبانيا، ٢٧١

وكانت التقاليد الموسيقية العربية في الأسبانيا في أوج حيوتها بين المورسكيين (العرب المنتصرين) طوال القرن السادس عشر، وكانت موسيقاتهم وأغانيتهم ورقصهم تثير أعجاب الاخبار بين الاسبان أنفسهم وهم يقصون علينا أخبارهم.³²

ويقول واحد المستشرق بلاسكو اباتيتير "Vlasco Abaeteter" (ت ١٩٢٨م):

لا تغرنكم اللمة في تلك العصور، فليس كل ما يلمع ذهباً، لم يأت تاريخ الاسبان من الشمال ولا من الكنيسة كما تظنون، بل جاء من الجنوب ومن الغرب، فمن الرب أتت إلى اسبانيا الحرية لشعبها في سنتين استغرق ثمانمائة سنة لا خراجهم منه، ذلك لأنهم لم يلقوا مقاومة شديدة عند فتحهم بلادنا، فأن الشعب الاسباني كان يشعر أن هذا الفتح ليس استعمار سلاح بل استعمار تمدن جديد و حرية دينية جديدة، لم ترها اسبانيا من قبل ولا من بعد.³³

فالعرب جعلوا اسبانيا في ذلك العهد كولايات المتحدة الامريكية يعيش فيها المسلم والمسيحي واليهودي بحرية تامة، ومن غير التعصب، وبينما كانت دول الشمال أوروبا تتطاحن في الحروب الدينية وبنائها يعيشون كالبرابرة، وكان العرب والاسبان واليهود يعيشون بسلام معا كتلة واحدة وأمة واحدة وارتقى فيها الفن وازدهرت العلوم وتأسست الجامعات وسكن ملوكها في القصور وعاش شعبها في الرخاء، لكن عندما خرج المسلمون عمل الملوك الاسبانيا ضد الحضارة الإسلامية وطردها الحضارة والعرب وأحلوا محلهم والدين والتعصب، والملكة ايزابيلا هي التي وضعت نظام التفتيش، لم تطفئ اسبانيا في ذلك العصر سراج العلم الذي كانت تضئ الجوامع الإسلامية وتحل محله قناديل العبادة، فصارف اسبانيا تهتم بذلك أكثر من اهتماما بالقرأة والتنقيب وعندها ابتدأت اسبانيا تموت.³⁴

ويلاحظ لويس برتراند "Louis Bertrand" أن المسلمين كانوا يعرفون ارسطو و الطب والرياضي والجغرافية بشكل جيد في العصور القديمة وذاك الوقت أوروبا كانت في حالة غير جيدة³⁵ ولقد اشتهرت جهود المعماريين والبنائيين المدجنين في بنائ الكنائس والقصور، كما قام ملوك المسيحيين والقس في الشمال بإرتداء الملابس المنسوجة في مصانع اسبانيا الإسلامية أيضاً، ومنذ فترة مبكرة تعود إلى بداية القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، ابتداء الكونت شانجو كونت

³² حوليان ريرا، تاريخ اسبانيا، ٢٤٤- ٦٦٢

³³ عبد العزيز مسند، م- ن، ١٥٤

³⁴ Baker, Cambredge Medieval History, p.305

قشتالة (ت ١٠١٧/٥٤٠ م)³⁶ بالعيش على الطريقة الإسلامية واستنادا إلى ما يقوله ابن حيان، فقد اندهش أحد سكان قرطبة المسلمين الذي كان مستقرا في تطليلة "Todela" عندما وجد هذا الكونت جالسا في بلاطه المزخرف مرتديا الملابس الإسلامية، لكنه قد وضع تاجا على رأسه.

كما كان السيد القمبيطور الذي قهر بلنسية وحارب بقية الحكام المسلمين في الامارات الأخرى، مستعربا تقريبا في سلوكه وعاداته، وكان التأثير المشرقي ملحوظا أيضا لدى معاصري السيد، وكانت إيزابيلا وفردينا لدو واتباع فليب الثاني حتى ارتدیت الملابس من قبل سانت فرناندو والأسقف "رودريكو خمينيث" وصى الأخير أن يكفن عند وفاته بقماش من صنع المسلمين.³⁷

ولم يكن هناك تشديد في فرض الحجاب على النساء المسلمات وقد لا حظ "أيدون هول" أن في ظل الخلفاء في اسبانيا وعلى الأقل بالنسبة للطبقات العليا من الناس لم يكن الحجاب مفروضا خلال الروايات المختلفة أن النساء في قرطبة قبل أكثر من ألف سنة كن يخرجن من غير خمار ويشاركن الرجال في بعض الأعمال الاجتماعية أيضا، في حين ابقى المسيحيون الأسبان نسائهم معزولات و محجبات ولم يكن من المستحب للنساء المسيحيات أن يخرجن دون أن يغطين وجوههن حتى بعد أن منع المسيحيون السادة النساء الموريسكيات من إتخاذ الحجاب في القرن السادس عشر الميلادي، بل كان السماح للنساء بالظهور في الاماكن العامة دون حجاب اثما في نظر المسيحيين، لا الرجال لا يتورعون عن النظر إلى وجوههن الجميلة.³⁸

ولقد وصف مناظر النساء المحجبات وهن يتجولن في المدن في العشرات من مسرحيات القرن السابع عشر الميلادي، واستعمل النساء الأسانيات نوعا من الأقبية يسمى "Manto Tapado" لا سيما في اشبيلية لتغطية الرأس والوجه، ونلاحظ استعمال الرداء نفسه في مدن بيرو إحدى دول امريكا جنوبيا، وما تزال النساء في الارجتنتين يستعملن لباسا يدعى "Tapado" وهو مأخوذ من كلمة مذكورة قبل و معنى كلمة "Tapar" يستأو يغطي وكلمة "Tapado" مغطى أو مستور. الفكر الاجتماعي العربي الإسلامي يتميز بصورة عامة، وفيها رغبة جذابة لذلك أراد الناس أن تتبعها، وقال المؤرخون كان العرب في اسبانيا حتى من حيث الاخلاق والعلم والصناعة أرقى من النصارى وكان في اخلاقهم وصفاتهم شئى من الكرم والاحسان مما لم يكن له أثر عند غيرهم، فيهم

³⁵ رانغرت دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا، ٢٠٤

³⁶ Adwyn Hole, Spain Under Muslims, p.31

³⁷ Adwyen Hole Spain Under Muslims, p.123

الشمم الذي امتازوا به، ونشر العرب في بلاد اسبانيا بما خصوا به من حسن المعرفة بلفلاحة وطرائقها المبنية على التجربة والمشاهدة، وما هو عجب الاعجاب، فزرعوا فلواتها وعمروا مدائنهم وربطوا علائق التجارية مع الأمم المجاورة، فظهرت بها الرفاهية، وصفا العيش-

كانت أساطيلهم التجارية تقلع من مالقة وبجاية المرية وبشونة وبرشلونة³⁹، تحمل إلى الشرق والغرب حاصلات الأندلس وتأتي من البلاد أرست فيها ما يلزمها وأهم ما كان الأندلسيون يهتمون به، خصوصا بعد أن قطعوا صلاتهم بالعباسيين ولذلك كان كثير من خلفائهم يجعلون لهم عملا في عواصم الشرق ينسجون لهم الكتب التي تؤلف حديثا ليطلعوا على سيرا العلم في العهد العباسي الأول والثاني، ومن أجل ما وصف به العرب الأندلس يقال:

”أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلوهم فصاحة الألسن وطيب النفوس وإبائ وقلة احتمال الذل والسماحة بما أيديهم والنزاهة عن الخضوع واتبان“⁴⁰.

قال لين بول، إن كل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها، وكل ما يؤدي إلى رقي باهر وحضارة سامية فازيه مسلمو اسبانيا⁴¹، ويرى المحقق البصير في تاريخ المسلمين باسبانية أن الامامة الثقافية ورسالة التمدن كان يقوم بهما العرب، وأن البربر اختلطوا بطبقات الأحياء الوسطى والدنيا، وأن العرب حافظوا على شرفهم الثقافي حتى بعد أن قبض البربر على زمام الحكم⁴².

وكما هو معروف أن في الأندلس كانت الأجناس المختلفة وبينهم تخاصم والثورات، لكن ليس هم طول تاريخ جماعات متفرقة ومتنازعة وموزعة الأهواء والامال والميول، بل بينهم روابط- والمصلحة القائمة والمشاركة التي كانت تملئها ظروف الحياة في مكان واحد، لأن النموذج الحضاري العظيم الناتج من أثر اختلاط هذه العقلية في الأندلس يكشف بوضوح عن معاني المشاركة الإيجابية والفعالة بين الجميع لتطور الحياة العامة في البلاد كلها، ولا نتصور أتصارها قويا وخطيرا كان قائما بصورة شبه دائمة بين السكان في حملتهم أو بين العناصر المتميزة منهم⁴³، وإلا فكان العمل الناجح المعروف عن الشعب الأندلسي مستحيل التحقيق أو بعيد الإدراك وإلا لاختلفت الصورة المعروفة

³⁸ كرد علي الإسلام والحضارة، القاهرة، ١٩٥٠م، ٢٤٤

³⁹ كرد علي، م-ن، ٢٤٥

⁴⁰ لين بول، مسلمين في الأندلس، إنجلترا ١٩٦٦م، ٤٣

⁴¹ علي حبيبة، مع المسلمين في الأندلس، القاهرة ١٩٨٧م، ٣٥٥

⁴² علي حبيبة، م-ن، ٣٥٦

والمنقولة عن الأندلسيين في بطون الكتب وفي آثارهم الباقية إلى اليوم، ولا شك أنها صورة طيبة وممتازة، وهي في جملتها وتفصيلها صورة شعب عرف طريق العمل في جماعة متفاهمة ولفترات طويلة من تاريخه ورغم هذا أو بعد كل ما يقال عن الصراع الطويل الخطير بين العناصر المكونة لشعب الأندلس، فقد كان لهذا الشعب دور حضاري عام وكانت له قصة حضارية متميزة تتحدث عنها كتب التاريخ باهتمام⁴⁴.

وإذا ندخل في السياسة والقوانين نستطيع نرى أن هناك شبها كبيرا بين السياسة والقوانين حتى القوانين الإدارية والمحلية بصفة عامة، ومع هذا عادات وتقاليد توجد في الحياة الأندلسية والقوانين البلدية المحلية ما زالت تنظم الحمامات العامة في زوريتا "Zorita" في منطقة وادي الحجاره وكونيكا، وهما قريتان قشتالياتان يوجد فيهما حتى الآن جماعات قليلة تمتلك حمامات مياه ساخنة⁴⁵.

وكانت شعيرة غسل الموتى تمارس ثلاث مرات أو حمسا في المجتمع الإسلامي، حيث يبدأ بالأعضاء اليمنى تلك التي يبدؤها المتوضيء بالغسل عادة، وكان اليهود يمارسون شعائر الغسل جثث الموتى أيضا، فقد غسل يوسف اباه يعقوب قبل تخطيطه ولكن هذه العادة لم تكن منتشرة بين المسيحيين، ومن المحتمل جدا أنها كانت تقليدا للمسلمين دون اليهود، لأنهم كانوا متأثرين بالممارسات الإسلامية، ذلك أن المسيحيين ابتداءً بتغسيل الومتى في اثناء وجود المسلمين في اسبانيا فقط، فقد غسلت جثة كونت طولوشة وكفنت بقماش من السلك الفاخر من قبل عدوه فرنان كونثاليث "Ferna Gonzalez"⁴⁶.

وفي الأندلس ما زال الاريكة والكراسي المجنبة توجد في غرفة الجلوس بالاسبانية "Estroda Torina" يعني منصة واسعة وبالعادة الإسلامية في جلوس النساء على الأرض أو على منصة واطئة، ويذودنا إلى "El Libro Del caballero Cifer" وهو كتاب يرجع إلى القرن الرابع عشر ميلادي بالمعلومات الآتية:

⁴³ علي حبيبة، م-ن، ٣٥٦

⁴⁴ عبدالواحد ذنون طه، دراسات الأندلسية، ٢٤٠

⁴⁵ Castreo, The Cronica General, Paris 1928, p.99

”ادركت السيدة أن الملك وقامت سائرة نحوه لتقبل يده لكنه امنع ومضى ليجلس معها على منصتها الواطفة“⁴⁷

وتبعاً للعادات المسيحية فالملك إذا أراد أن يشرف جماعة من النبلاء سمح لهم بارتداء قبعاتهم في حضوره، كذلك لو ارادت الملكة أن تكرم نساء نبيلات سمحت لهن بالجلوس على مخدات في حضورها، وقد عرف هذا التقليد الأخير ”Tomar La Almohada“ أي أخذ مخدة الملك، ويعتقد سمرانتس ”Cervantes“ أن جلوس النساء على المخدات كان عادة شرقية- فقد قيل:

”إن منصة ذات مخدات مخملية ناعمة أفضل مما عند أي مسلم“⁴⁸

وإلى جانب الأريكة كان هناك بعض قطع الأثاث الأخرى مثل السجاد والمخدات والبسط وعلائق الالبسة التي تعود إلى أصل عربي، وهي أمثلة على التقاليد العربية في تأثيث غرفة الجلوس في اسبانيا وما تزال تستعمل مع بعض التعديلات من قبل الشعوب المتمدنة في كل أنحاء العالم، وفي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي زار بارون ”Zech Taveller Rozinthal“ بورجوس ”Burgos“ في قشتالة، وهو مكان لم يعد فيه أي مسلم منذ القرن العاشر الميلادي، وسجل في مذكراته طرق الحياة الموريسكيين التي تسربت إلى الحياة العامة، وقد استمتع هناك وتسلّى بالرقص والشراب، وفي إحدى الحفلات شاهد بعض النساء الجميلات مرتديات للزي الاسلامي يأكلن ويشربن ويرقصن على الطريقة الموريسكية-⁴⁹

وكان ميخائل لوكاس ”Miguel Lucas“ أحد رجال حاشيتههزي الرابع يركب الخيل على طريقة تسمى خنتيا ”Jineta“ وهذا الاسم تحريف لاسم قبيلة زناتة البربرية، وهو يرتدي رداء موريسكيا متعدد الالوان من الحرير يدعى الخوابا ”Aljoba“ (الجبّة) وهو ثوب طويل له اكمام قصيرة وضيقة.⁵⁰ وقد عرف الفرسان المسلمون بطريقة ركوبهم، وكان الملوك المسلمون يحصلون على هؤلاء الفرسان من قبيلة زناتة البربرية وطريقة خنتيا أو زناتية تتميز بالركوب اعتمادا على الركاب القصير مع رفع الأرجل، وهناك بعض العادات أخرى نجد في المجتمع الأندلسي مثل الأندلسيون يقولون وقت التحية بهذه الكلمات بالفظ العربي اسلام عليك ”Dios Guarde“ أي يحفظك الله، أو بكلمات ”Dios Guard a Usteds Caballeros“ أي عسى أن يحفظكم الله ايها الرجال، أما الريفيون في منطقة غرناطة فكانوا يقولون في القرن السادس عشر الميلادي ”Dios Mantenger“ أي يحفظك الله أو يصونك⁵¹، وكل هذه الاشكال من

⁴⁶ عبد الواحد ذنون طه، دراسات الأندلسية، ٣٩٩

⁴⁷ Castreo, Ibid, p.100

⁴⁸ Castreo, Ibid, p.113

⁴⁹ Castreo, The Cronica General, p.99

⁵⁰ Castreo, The Cronica General, p.99

التحيات يبدو متأثر بالصيغة الإسلامية لا لقاء السلام ولقد تعود العرب أن يقول للسائل بالعربية الدارجة الله يعطيك، عندما يعتذر احدهم عن إعطاء الصدقة واحتفظ الاسبان بهذه الصيغة محورة بقولهم ”سامعيني من اجل الله“ أو يحفظك الله، ومن عادة المسلمين أيضا التقاط الخبز من على الأرض والقول عيش الله، ويعمل الاسبان الشيء نفسه ويقولون ”Cs Pan De Dios“ أي أنه خبز الله، ويبدو أن أحد الطرفين قد تأثر بالآخر والغالب على الظن أن المسيحيين استعاروا ذلك من العرب، لأن الفكرة مشرقية وأن تقبيل الخبز الساقط على الأرض ما يزال يلاحظ عند المسلمين في الشرق.⁵²

وإن تقبيل اليد دليل على الاحترام لمن هو أكبر سنا والطاعة للرؤساء عادة عربية ومشرقية، وقد ذكر الشقندي أن ابن دراج كان قد قرر لنفسه أن يقوم برحلة طويلة من أجل أن يقبل يد العامري، وقد مارس هذه العادة أيضا اليهود الاسبان علامة للاحترام وليس لهذه العادة علاقة بنظام الاقطاع في أوروبا بل بالحياة المشرقية.⁵³

وحتى اليوم ابن في المصر يقبل يد الأب، وقد اراد السيد مرة في سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م أن يقبل اقدام الفونسو السادس ، ولكن الخير سمح له بتقبيل يديه دون رجليه وفي سنة ١٥٦٦م كتب الدون لويس دي ريكونيس ”Don Luisde Rquesens“ رسالة إلى فيلب الثاني يقول، صنعة جلالكم التابع والخدام الذي يقبل ايادي جلالكم الملكية وارجلها.⁵⁴

وقد دخلت هذه العادة صيغة الرسائل في اسبانيا، بأن ينص على تقبيل اليد وتقبيل الارجل- وفي القرن التاسع عشر كانت السيدة تقول للرجل عند الاستئذان منه، أنا أقبل يدك فيجيب الرجل وأنا أقبل رجليك يا سيدة، وكانت أيدي الأب تقبل أكثر من أي تذكارات مقدس⁵⁵ والمصطلح العربي المأثور الذي يقال للضيف ”البيت بيتك“ قد احتفظ به من قبل الاسبان الذين يقولون ”Esta es su casa“ ويضيف الاسبان عند توديعهم للضيف ”Ya Sabe Que ha tomado posesion de su casa“ بمعنى انت تعلم أن بإمكانك أخذ المحتويات الدار كلها، أما تسليم المفتاح المدينة لرائر مشهور، فما هو إلا امتداد لهذه العادة ذاتها في تشريف الضيف، ومازال سكان منطقة أندلوسيا في اسبانيا يقدمون بطريقة شرقية الطعام والشراب لأي عابر سبيل أو قريب مجاور، يمر في أثناء تناولهم للطعام فيقولون ”Usted Guesta“ أي هل لك في تناول الشيء أو ”Comar Venga Usted a“ أي تفضل وتناول الطعام، فيرد عابر السبيل شاكرا ”

⁵¹ Castreo, Ibid, p.119

⁵² Castreo, Ibid, p.121

⁵³ Casstreo, Ibid, p.121

⁵⁴ Castreo, Ibid, p.122

“Que Approveche” عسى الله ينفعك هذا أو “De Salud Sirva” عسى أن يدم هذا عليك صحتك-

والاسبان في حالات عديدة يذكرون اللفظ اللاتي “Si Dios Quiere” أي إذا شاء الله، وفي فترة من الزمن تعلم العديد من المورسيكيين الكثير من مفردات اللغة القشتالية حتى أن فقيه اشبيلية “Alfaquis” أصدر خلاصة للأوامر الوصايا الرئيسية في القانون الإسلامي في قشتالة، وبدأ الاسبان بنظم الشعر الغنائي بالقشتالية ولكن بأفكار الموريسكية تتحدث بحرية عن الجنس بشكل طبيعي كما يتحدث العرب عن الحب العذري بالطريقة العربية، ومعنى ذلك أن التأثير الحضاري العربي الإسلامي كان قوي ومميز لذلك قال غوستاف لوبون:

”كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم و إن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم، فالعرب هم الذين هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثير هم الخلقي، والعرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثير هم الثقافي فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون.“⁵⁶

وهناك امثلة على الاسبان الذين تأثروا بالحياة العربية تأثيراً قوياً، وقد ورد عن فرانثيسكو دسكالوت، وهو شيخ اسباني من كونثيتانيا أنه كان يعيش عيشة العرب ويحتفل بالمناسبات التي يحتفلون بها، ويغني أغاني العربية ويبحث جيرانه على صيام رمضان، ويقال أنه يتجول من مكان إلى آخر و هو يعزف على عوده برفقته شخص حديث الدخول إلى مسيحية، كان يساعده ويشترك معه في الغناء والعزف على الدف وكان يغنيها باللغة أغنية بهذا المعنى-

”أيها الناس صوموا في هذا الشهر المبارك كما اعتدتم أن تفعلوا لكي تكسبوا الجنة.“⁵⁷ وهناك خبر عن فتى عاشق سمى “بويرتو كاريرو” كان يغني بالعربية أغنية تبدأ هكذا ”يا غرناطة الجميلة“ وعادة الغناء في الشوارع ليلاً، شائعة كثيراً بين الشباب هم يغنون ويتجولون على شكل جماعات يتداولون بينهم أدوار الغناء وقد يمرون تحت شباك حبيته لأحدهم فيثقلون الحظو أو يقفون ويدعون العاشق يتغنى بها بما يحفظ من أغنيات حديثة أو موال أو مقام إلى غيره-

وهذه العادة إنما هي إرث ورثناه عن العرب الأندلسيين، كما ورثه الاسبان اليوم، فقد وصلتنا أخبار عن مصادر اسبانية معاصرة تصف كيف كان الفتیان العرب يعملوا نفس العادة عادت بين الشبان الاسبان،

⁵⁵ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ١٩٠٠

⁵⁶ حوليان ريرا، تاريخ اسبانيا، ٢٢٢

إلا أنهم استبدلوا بالعود القيثارة وأن العراقي الذي يعيش في إحدى المدن الإسبانية الجنوبية يشعر وهو يسمع الألحان الشعبية العذبة تأتيه من بعيد، يشعر كأنه في البيت العظيمة أو في إحدى محلات بغداد.⁵⁸

فالتأثيرات المتبادلة بين العرب والأسبان وتأثير العربي خاصة في اسبانيا وحضارتها وشعبها وتاريخها، فيما أهمية تاريخية وأدبية واجتماعية وحضارية وفولكلورية ولغوية ذات أمة بالغة للعرب والاسبان على سواء.⁵⁹ وإن الأمة الأسبانية تمت إلى الأمة الأندلسية الذاهبة بكثير من الظواهر العنصرية والحضرية والاجتماعية، وتمثل هذه الظواهر بنوع خاص في أهل الولايات الجنوبية، فهو ما زال متغلغلا في روحها وطبائعها.

ويقول خوليو كاروبا، التميز الديني هو أهم الجوانب التي تميز فيها المورسيكيون كان يهتمهم في مقام الأول تطبيق مبادئ الإسلام واتباع تعاليمه ظاهرا وباطنا، وكانوا يصبرون على ذلك أشهد ما يكن الصبر بلأن هؤلاء المسلمين لم يكن التراجعهم على الفرائض فقط، بل كانوا يتبعون ويطبّقون سنة النبي صل الله عليه وسلم، قدر تطبيقهم والواجبات، يعمي يمكننا القول غير المبالغين إن الحياة المورسيكيين كانت نموذجاً للمسلم الملتزم المتمسك بدينه⁶⁰ كما قيل:

”إن الحياة المورسيكيين الدينية لم تكن تختلف في جوهرها عن الحياة الدينية للشعوب العربية أو لغيرها من الشعوب التي كانت أو ما زالت تدين بالإسلام وهؤلاء المسلمون لا تغفلون إلا ما يخالف شرائع المجتمع الأندلسي يعيشون فيه ومعني ذلك في غالب الأحيان وبصفة عادية يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويأثمون بأوامره ويتجنبون نواهيه وكانوا لا يقربون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ويمتنعون عن الأكل الحيوان ذبح على غير شريعتهم ويحافظون على وضوئهم وطهارتهم وسائر شعائر دينهم وكانوا يرتدون الذي الإسلامي ويتحدثون اللغة العربية.“⁶¹

ومصور آخر يوضح لنا كيف أن مورسيكيين كانوا يفرقون جيدا بين الحرام والحلال وكانت لديهم معرفة كافية بأمور دينهم، وفوق ذلك يوضح مدى اعتزازهم وفخرهم بهو يتهم الإسلامية حيث يذكر لنا الباحث البرتغالي:

57 حكمة على الأوسى، الأدب الأندلسي، ٢٤٦

58 عبدالله عنان، الآثار الباقية في اسبانيا والبرتغال، القاهرة، ١٩٥٦م، ٣٥٩

59 خوليو كاروبا، المورسيكيين في مملكة غرناطة، مدريد، ١٩٨٤م، ٤٩

60 داميان فونسيكا، تاريخ تمرد المورسيكيين وعقابهم في مملكة غرناطة، مدريد، ١٨٩٦م، ١٢٣

”كم كانت سعادتهم و سرورهم عندما كانوا يدعون بأسمائهم العربية لم يرا واحد منهم يتناول الدم أو يأكل من حيوان غريق أو منخنق إذا وجدوه، قد مات ولا من حيوان قتله حيوان أنهم لا يدوقون لحم طيرمات في فخ، ولا حتى لحم الأرنب الذي قتله سلوقي“⁶²

وفي المسرحيات الإسبانيات هناك الايات الشعرية التي يبدو من خلالها حرص المورسكيين على تجنب الحرام في شريعتهم وقال إحدى شخصياته، ما أنظفه وما أطهره، وذلك الذي طهر اسبانيا، ذلك الذي استطاع أن يفعل ما لم يفعله أي ملك منذ عهد القوط، أخيرا استطاع إجلاء هؤلاء الذين شربوا الماء بحكم شريعتهم هؤلاء الذين لم ينفقوا درهما فيصلك غفران⁶³ وهناك أغنية لذكرى العرب-

قالو أنه وجب علينا أن نرحل

نحن أيضا من هزه الأرض

أين توجد جماعات العرب

نحو تلك الأرض الطيبة

أين الذهب والفضة الرقيقة

يوجد أن من جهل إلى جبل

إنهم يهددنا بالطرد

أين توجد جماعات العرب-⁶⁴

ولا حظوا الناس المنصفين أن الحياة أصبحت للمورسكيين صعب جدا في المجتمع الأندلسي بعد السقوط قال:

”إنهم خضعوا في الظاهر للتنصير ولكنهم لنشوا كفرة في سرائهم وهم يذهبون إلى قداس تفاديا للعقاب ويعلمون خفية في أيام الأعياد ويحتفلون بيوم الجمعة أفضل من يوم الأحد، وقيمون الصلاة خفية وتذهب عرائسهم للكنائس في ثياب أوروبية فإذا عدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية واحتفلن بالزواج طبقا للمراسم الإسلامية“⁶⁵

وعندما تميل شمس الثقافة العربية إلى الغروب وعندما كان المسلمون يتحملون أشد أنواع التضيق والتشريد وكان الغرض من ذلك هو الحفاظ على التراث الإسلامي ونقله إلى هؤلاء الذين نسوا اللغة العربية

⁶¹ داميان فونسيكا، تاريخ تمرد المورسكيين وعقابهم في مملكة غرناطة، ١٣٦

⁶² لوي دي بيجا، المسرحي الاسباني، بيروت م ١٩٩٢، ٢١

⁶³ عبد الجليل التميمي، المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون، تونس ١٩٩٣م، ٢٨

⁶⁴ صلاح الدين فضل، ملحمة المغازي المورسكية، القاهرة ١٩٨٩م، ٢٥

علاوة على ذلك من تحد صارخ للإجراءات الصارمة التي كان يفرضها عليهم القانون على محاكم التفتيش في إسبانيا وقد ادرك بعض الباحثين أن التفكير في إمكانية تحويل هؤلاء المسلمين عن دينهم هو درب من دروب المستحيل-

وهم بصفة عادية يحافظون على صلاتهم ويصومون بأهتمام الخاص، فقد كان هؤلاء المسلمون يؤمنون بأن الصيام ليس مجرد امتناع عن الأكل والشرب، بل كانوا يعتبرون هذا صياما واجبا عليهم من الله، ومع هذا هم يصومون بنسبة الأيام الأول من شهر وشوال ويوم عاشوراء يوم عرفة، وهم يحافظون على آداب الأكل والشرب، ومثال آخر تجلى فيه الاعتزاز المورسكي بالهوية العربية وهو رومانت "العربية المخدوعة للمراسم الإسلامية"⁶⁶ حيث تقول الفتادة الموريسكية-

أنا عربية عروب

عربية من النسل ابن قطر

مسيحي جاء لبابي

افتحي الباب يا عربية-----

جاء يبغي الخطر

حدثني بلغتي الحبيبة

افتحي الباب يا العربية---⁶⁷

إن النموذج الحضاري العظيم الناتج من أثر اختلاط هذه العنقيات في الأندلس يكشف بوضوح عن معاني المشاركة الإيجابية والفعالة بين الجميع لتطور الحياة- وفي الوقت يمكن أن السكان في الأندلس لم يستطيعوا الامتزاج نهائيا أي أنهم لم يكونوا شعبا اندلسيا واحدا تقل الفروق بين جماعته وتتعاطف في هذه الجماعات بشكل إيجابي يساعد على بقاء للنهائية في وحدة قوية وفي أرض واحدة يشعر الجميع بالإشتراك في ملكيتها وبالحرص على سلامتها-

وإذا كان صحيحا أن حركة مطاردة العرب والدين و الثقافة العربية في اسبانيا كانت قوية فقد كان صحيحا أيضا أن أثر العرب كان واضحا هناك وأن تأثيرهم ظل قويا لفترات طويلة بعد سقوط دولتهم و بعد ضياع نفوذهم، وهذه ولا شك من أسرار عظمتهم وتفوقهم- وحركة المطاردة ضد المسلمين كان فيها احساس بتفوق العرب الحضاري وبقوتهم المعنوية-

⁶⁵ صلاح الدين فضل، م-ن، ٢٨،

⁶⁶ صلاح الدين فضل، م-ن، ٢٨،